◆ المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها القسم الأول

د. عبد العزيز لعرج

Les medersas dans les pays d'Islam: origine, développement et expansion

(1ère partie)

Dr. Abdelaziz LAREDJ

Cette étude presente la medersa comme institution de la civilisation musulmane en identifiant ses fonctions, les facteurs de son émergence, développement et expansion au Machreq et au Maghreb. L'accent sera mis sur le rôle des seldjoukides dans l'apparition des medersas en Iran et en Irak et celui des Iyoubides dans la consolidation de cette institution en Egypte et au Sham. Il s'agit ensuite de décrire l'expansion des medersas au Maghreb à l'époque des hafside, mérinide et zianide. Dans cette région, l'aspect architectural des medersas était différent de celui observé au Machreq, notamment à cause de la référence exclusive au rite malékite.

مقدمة: تعرضت الأمة الإسلامية منذ مطلع القرن 5 هـ/ 11 م مشرقا ومغربا إلى جملة من التحديات السياسية والاجتماعية والدينية في الداخل والخارج، فضلا عن بداية انتكاس المجتمع الإسلامي، وخمود حركة الجهاد فيه فأطمع فيه الأعداء كالدولة البيزنطية والغرب المسيحي الذي بادر بالهجوم فيما يعرف بالحروب الصليبية الهادفة إلى الاستيلاء على بيت المقدس، قلب العالم الإسلامي، ففي غربه سقطت الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422 هـ، انقسمت البلاد على إثرها إلى نحل وطوائف وإمارات متناحرة متطاحنة رافقتها حروب أسبانية استردادية، وفي المشرق ضعفت الدولة العباسية، وسيطر عليها الأعاجم من فرس وترك، في الوقت الذي قامت فيه خلافة شيعية فاطمية

فتية تسعى للسيطرة والنفوذ والحلول محل العباسيين، وتحولت الخلافات السياسية التقليدية إلى صراع بين السنة والشيعة وإلى تناحر مذهبي شديد، متخذا من العلم وسيلة للإقناع وسبيلا لأضعاف الخصم، في ظل هذه الظروف اتجهت أنظار عقلاء الأمة وحكماؤها من العلماء والفقهاء والحكام المخلصين إلى البحث عن سبل الإصلاح والتجديد داخليا ومواجهة الأعداء خارجيا، فجاء استحداث نظام المدارس كمؤسسات جديدة تضطلع بهذه المهمة، وكان أبطالها السلاجقة في إيران والعراق، ولكنها عمت العالم الإسلامي بكامله.

أولا المدرسة: مصطلحا ووظيفة

يذهب المقريزي من حيث تعريف المدرسة نقلا عن ابن سيدة وابن جني، أنها مشتقة من الفعل «درس الكتاب» يدرسه درسا ودراسة، إذا كرره للتمكن منه، ودارست ودرّست، والمدرس: وهو الموضع الذي يدرس فيه(1)، وهي أي المدرسة عند آخرين كلمة عبرية عرفتها اللغة العربية قبل الإسلام.

والمدرسة منشأة من مستحدثات الإسلام فلم تكن معروفة قبله كما لم تكن معروفة في الفترة الإسلامية المبكرة، وترتبط المصادر ظهورها، مع اختلاف بينها في ذلك، بالربع الثالث من القرن 5هـ/10م. فالمقريزي يذكر ما يلي: «المدارس مما حدث في الإسلام ... وإنما حدث عملها بعد المائة الرابعة من سني الهجرة، وأول ما حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية»(2)، وهي نسبة لصاحبها أبا بكر البيهقي الذي توفي سنة 454هـ / 1062م(3) وكان أحد فقهاء الإسلام المعدودين.

عوامل نشأة المدارس وأسبابه: يتميز الدين الإسلامي عن بقية الأديان الأخرى، سماوية أو وضعية، من حيث نظرته الشاملة للكون والحياة ولما يشتمل عليه من مضامين علمية وفكرية، كحثه للإنسان المسلم على إمعان النظر في الكون وملكوت السموات ببصر وبصيرة حيث أعطي للفكر فيها نصيبا كبيرا دون أن يجعل منه سيد المعرفة(4). ومهما يكن فإنه لن يتأتى له ذلك إلا بالإحاطة بمبادئ العلم وقواعده وفنونه والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله على حدّ تعبير ابن خلدون(5).

ومما زاد في تقوية الإحساس بهذه المضامين العلمية، تأكيد الرسول الكريم لها، ودفع الناس إلى الأخذ بها لقوله: ***«من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم».***

وإذا كان العلم بدأ لصيقا بالمسجد فإنه كان مرتبطا من جهة أخرى بالدين وبالعقيدة، بجميع أفرعها واختصاصها، ولعبت المساجد بذلك دورا هاما في تطور العلوم عند المسلمين وازدهار الحياة الثقافية والفكرية عندهم(6).

وبما أن المسجد كان مؤسسة جماعية، فإن العلوم بها كانت مسؤولية الجماعة تحتضنها وترعاها وتنفق عليها، ولم يكن للدولة تدخل فيها إلا باعتبارها جزءا من هذه الجماعة، ولا يتعدى ذلك منها إلى التوجيه والاشراف، وإنما كان ذلك مهمة العلماء والمدرسين والفقهاء، خدمة للدين ومصالح المسلمين معتمدين في ذلك على الفهم السليم لتوجيهات العقيدة ومقاصدها الكبرى، وكان ذلك كله باعثا على تطور الحركة العلمية والثقافية في العالم الإسلامي وازدهارها، حتى بلغت ذروتها في القرن 4هـ / 10م(7).

ومع مطلع القرن 5هـ / 11م استجدت أحداث سياسية ودينية واجتماعية في العالم الإسلامي بصفة عامة ومشرقه بصفة خاصة، ففي غربه سقطت الخلافة الأموية بالأندلس (سنة 422هـ / 1030م)، وانقسمت البلاد على نفسها بين أمراء ضعاف متنافسين متعاونين مع عدوهم، بعضم ضد البعض الآخر وأسوء مثال لهم المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية(8).

وفي المشرق قامت خلافة فاطمية شيعية اتخذت من مصر مركزا لها، وامتدت منها إلى الشام والجزيرة والعراق، كما تحولت الخلافات السياسية التقليدية بين السنة والشيعة إلى تناحر مذهبي شديد، متخذا من العلم وسيلة للإقناع وسبيلا لإضعاف الخصم وكانت الشيعة بشقيها الفاطمية والإيرانية البادئة بذلك والممعنة فيه والمتعاونة عليه مستغلة كل منها ضعف الخلافة العباسية السنية في العراق وتنفذ الأجانب فيها وخاصة البويهيين المتشيعين(9)، فضلا عن بداية انتكاس المجتمع الإسلامي وخمول النشاط الفكري لديه وخمود حركة الجهاد فيه، حتى أطمع الدولة البيزنطية وهي العدو اللذوذ للإسلام والمسلمين، وأقسم امبراطورها رومانوس الرابع ليدخلن بغداد غازيا ونفذ ذلك في قوة عظيمة لم يوقفه فيها إلا ألب أرسلان السلجوقي(10).

وكانت العلاقة بين الإسلام والمسيحية في تأزم واضح منذ القرن 5هـ / 11م، والأوضاع السياسية والعسكرية بينهما منذرة بحدوث صدام، بدأت خطوطه تتجلى منذ استيلاء الإسبان على طليطلة في الأندلس سنة 478هـ / 1085م، وسقوط صقيلية في يد المسيحيين النورماند سنة 484هـ / 1091م ووصول الطلائع الأولى للصليبيين إلى القسطنطينية عازمة على الإستيلاء على الشام واستخلاص بيت المقدس من يد المسلمين سنة 490هـ / 1096م(11)، حيث دخلت هذه العلاقة بين الكتلتين فيما يعرف في المصطلح التاريخي بالحروب الصليبية.

وكانت هذه الأحداث والأخطار المحدقة بالإسلام مغربا ومشرقا والتحديات الكبيرة التي تنتظره في كيانه ووجوده دافعة بالمسلمين إلى إعادة النظر في مسيرتهم الدينية والسياسية والتنظيمية، وكان لا بد من أن يتولى عقلاء الأمة وحكماؤها من العلماء والفقهاء والحكام المخلصين البحث عن سبل جديدة للإصلاح والسعي إلى تجنيبها نتائج محتملة تبدو مدمرة.

ولم يكن الوضع الداخلي للمسلمين بأقل خطرا من أوضاعهم الخارجية، فالدعوة الشيعية الموجهة ضد السنة بلغت شأنا عظيما بالمشرق في إيران ومصر والشام والجزيرة وحتى بغداد نفسها(12) وانتشر دعاتها في المناطق والأقاليم يزرعون الفتن ويثيرون الفوضى، فأثر ذلك على المسيرة الاقتصادية والعلمية والثقافية والاجتماعية للمسلمين.

وأمام ذلك كله اتجهت أنظار هؤلاء العلماء إلى الإصلاح والتجديد والتصدي للإنحراف الديني والتشتت الاجتماعي والصراع المذهبي تحصينا للذات وحماية للنفس والدفاع عن الوجود المهدد داخليا وخارجيا، وأتت تلك الحركة الإصلاحية ثمارها في اجتماع الأمة ووقوفها كتلة واحدة في مواجهة الغزو المسيحي الصليبي لبلاد المشرق والمغرب وإفشال مشاريعه وإيقاف مدّه على يد الإمارة الزنكية والدولة الأيوبية في مصر والشام وعلى يد الدولة المرابطين والموحدية ثم المرينية في الأندلس.

وقد ساهمت الأمة في إنجاح تلك الحركة الإصلاحية باستحداث مؤسسات جديدة في هياكلها واستخداماتها ووظيفتها وأهدافها، تعاون فيها العلماء والأثرياء والحكام على تأسيسها والتوسع في انشائها والإنفاق عليها، فظهرت بذلك المدارس للتدريس وتلقين العلوم المختلفة، وبدت كمؤسسات جديدة تستجيب لتحديات الأوضاع المستجدة في القرن 5هـ / 11م في العالم الإسلامي، وتحقق أهداف ومرامي الحركة الإصلاحية.

وتقوم داخليا بالتصدي للدعوة الشيعية وإبطال دعاويها ومواجهة دعاتها، وواكب ظهور فكرة المدرسة، قيام حركة معمارية نشطة، ساهم فيها الحكام والأمراء والوزراء والأثرياء بالنصيب الأكبر، بل يمكن القول، أنها قامت على عاتقهم بناء وتعهدا وإنفاقا.

دور السلاجقة في نشأة نظام المدارس ونشرهم له في إيران والعراق: وكان أبطال هذه الحركة في المشرق السلاجقة في إيران والعراق وهم سنة آلوا على أنفسهم التمكين للمذهب السني ومواجهة المذهب الشيعي، وكان الوزير السلجوقي نظام الملك صاحب كتاب «**سياسة نامة**» رائد هذه الحركة المعمارية في إيران والعراق وصاحب مدارس كثيرة أهمها المدرسة النظامية الشهيرة في بغداد(13).

وبذلك سنت الدولة السلجوقية ووزيرها سنة حميدة وتقليدا نافعا سارت على منواله الدول فيما بعد بحكامها وأمرائها ووزرائها وأثريائها، فكانت بذلك راعية للعلم والعلماء ومتولية تشييد المدارس والعناية بها تنظيما وإصلاحا وترميما فضلا عن الإنفاق عليها وعلى طلبتها وموظفيها. وإلى هذا النوع من المؤسسات الجديدة، وهي المدارس، أوكلت مهمة تكوين فئة من العلماء والفقهاء والدعاة هم بمثابة موظفي الدولة لهم القدرة والكفاءة على التوعية والإصلاح والتأثير الاجتماعي. وإذا كان ظهور المدارس جاء استجابة للتحديات المختلفة التي جابهت الأمة الإسلامية فهل استطاعت هاته المنشآت الجديدة أن تؤدي دورها الذي قامت من أجله وهل حققت الأهداف التي أنشئت من أجلها؟

إن الإجابة على ذلك مرتبطة بمعرفة وظائفها وأهدافها اللذين ييسران عملية التعرف على نظامها وخصائصها المعمارية والفنية.

وظيفة المدرسة: إن المدرسة تعني في المصطلح الوظيفي مؤسسة لتدريس العلوم الإنسانية ودراسة علوم الشريعة بصفة خاصة التي تضم مجموعة من العلوم المساعدة كالآداب والفلسفة وعلم اللغة وغيرها، كما يمكن أن تدرّس بها علوم الطبيعة والطب وما إلى ذلك.

وتعتبر المدرسة نتاج لثلاثة مراحل تطورية للمؤسسة التعليمية في الإسلام:

الأولى: كانت فيها عملية التعليم تتم داخل المسجد أو الجامع الذي يتخذ بدوره للصلاة.

الثاني: مؤسسة تجمع بين المسجد والخان الذي يستخدم لإيواء الطلبة الأجانب عن المدينة.

الثالثة: وهي المدرسة بصريح العبارة بأسسها ونظامها وهي تستجيب لوظيفة المسجد والخان اللذان يجتمعان فيها وهي قائمة على وقف واحد يجد فيها الطلبة مأوى لهم(14).

وقد ناقش الأستاذ أحمد فكري مجمل الآراء المتداولة بين الباحثين حول وظيفة المدرسة إعتمادا على المصادر والمراجع المختلفة، وخلص إلى: أن المدرسة اتخذت وظيفتها الرئيسية من كونها أعدت لتضم بيوتا لسكنى طبقة متميزة من الفقهاء والطلبة، وأنه لا مجال من وجهة نظره للأخذ بالفكرة القائلة: من أن إنشاء المدارس كان لمناهضة الشيعة ونشر السنة وإعداد أئمة مختصين بالوعظ فيها وهي الأفكار المتداولة بين المستشرقين والباحثين الغربيين، ذلك أن المساجد والجوامع من وجهة نظره كانت دائما كفيلة بتحقيق ذلك الغرض، وأن المذاهب السنية الأربعة كانت تدرس فعلا في المساجد(15) وإذا كان ذلك صحيحا، فإن مناهضة المذهب الشيعي كان واحد من تلك الوظائف.

انتشار المدارس في المشرق: وقد قام السلاجقة بمهمة التصدي لهذه الحركات الشيعية ومواجهتها، وتقوية المذاهب السنية، وذلك عن طريق نشر التعليم وإنشاء المدارس المتخصصة في أهم مدن الشرق، حيث شيدت مدارس كثيرة في مدن العراق وبلاد فارس.

انتشار المدارس في الشام: وقد انتقلت حركة بناء المدارس من العراق إلى الشام وبيت المقدس، بدأها السلطان نور الدين محمود بن زنكي، وقلده فيها أقاربه وأمراؤه ورجال دولته، والأثرياء من الرجال والنساء، فضلا عن بعض العلماء ساروا على نهجه، وفي مقدمة أمرائه صلاح الدين الأيوبي، وشملت تلك الحركة مذاهب السنة الأربعة، وكذلك جميع الدراسات المعروفة آنذاك من دينية وعلمية: من قرآن وحديث وشريعة وطب وغيره(16).

انتشار المدارس في مصر: ووصل نظام المدارس إلى مصر في أواخر العصر الفاطمي حيث كانت الدولة فيه ضعيفة نازعة إلى المهوى، وكانت مدينة الإسكندرية أول منبت لذلك النظام، لبعدها عن العاصمة الفاطمية القاهرة ولتجذر المذهب السني المالكي فيها، فشيدت أول مدرسة للمالكية سنة 532هـ / 1137م على يد وزير الخليفة الفاطمي الحافظ رضوان بن ولخشي(17)، ثم تلتها مدرسة للشافعية بنفس المدينة، بناها الوزير العادل سيف الدين علي بن السلار، وهو وزير الخليفة الفاطمي الظافر وذلك سنة 544هـ / 1149م(18).

وما إن اعتلى صلاح الدين الأيوبي وزارة الخليفة الفاطمي العاضد، حتى وضع خطة لمواجهة الفكر الشيعي، فبنى مدرستين سنة 566هـ / 1170م وذلك بجوار جامع عمرو بن العاص، هما: المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية، الأولى للشافعية والثانية للمالكية(19). وواصل صلاح الدين سياسة إنشاء المدارس وتدعيم المذاهب السنية بغرض القضاء على التشيع ومحو أفكاره، بعد أن تولى حكم مصر والشام.

النظام المعماري للمدارس في المشرق(20): لقد اعتاد المستشرقون في دراستهم للنظام المعماري لمدارس المشرق ربطه بالمذاهب القائمة فيه والمتبعة بين سكانه (المالكي-الشافعي-الحنبلي-الحنفي)، وذلك لأن تخطيط هذه المدارس اعتمد على نظام الأواوين، حيث يتكون نظام المدرسة من: صحن أوسط مكشوف تحيط به وتشرف عليه في آن واحد أربعة أواوين أكبرها إيوان القبلة، الذي يتخذ مصلى للمدرسة، وعلى جوانب

الأواوين أو أعلاها أو على بعض جوانبها وأعلاها أو خلفها تقام حجرات الطلبة وغرفهم، وملاحق أخرى كالمطابخ أو المطاعم والمخازن، وكان هذا النظام المعماري هو السائد في مدارس إيران والعراق والشام ومصر.

المدارس في المغرب:

أما في المغرب والأندلس فإن سيادة مذهب واحد جعلها بمنأى عن الاختلافات المذهبية والفكرية المثيرة للجدل، إذا ما استثنينا الاختلافات في وجهات النظر المتعلقة بسبل إصلاح المجتمع ومواجهة الانحرافات فيه، وسبل الحفاظ على نقاوة عقيدته، وتطبيقها في حياته العملية، وهي الأسس الإصلاحية التي قامت عليها دولتي المرابطين (448-541هـ / 1056-1147م(21) والموحدين (541-667هـ / 1147-1267)(22). وبذلك اختصت مدارس المغرب منذ قيامها بنشر العلوم الدينية والشرعية على المذهب المالكي، فازداد الإقبال على العلم والمعارف، وكثر طلابه واتسع نطاق تشييد المدارس والإكثار منها في مدنه وأقاليمه، مثلما يشير إلى ذلك ابن مرزوق في عهد أبي الحسن المريني(23).

وقد انتقل نظام المدارس إلى بلاد المغرب والأندلس، بعدما يقرب من القرن من بداية ظهورها في الإسكندرية في مصر (532هـ / 1137م)، وتشير النصوص التاريخية إلى وجود المدارس في المغرب الإسلامي منذ عهد حكم الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (555-595هـ / 1160-1198م)، إذ يصفه ابن أبي زرع بقوله: «... أنه كان عالما بالحديث والفقه واللغة مشاركا في كثير من العلوم النافعة للدين والدنيا، محبا في العلماء معظما لهم صادرا عن رأيهم...»(24)، وحاكم هذه صفاته من العلم والصلاح مضطلعا بهما مشاركا فيهما جاعلا من بلاطه محفلا للعلم والعلماء، لا غرو إذن أن يهيء لكل ذلك أسبابه. ويواصل ابن أبي زرع في فقرة أخرى حديثه عن الأعمال الحضارية العمرانية لهذا الخليفة، يضمنها إشارة لبنائه المدارس في قوله: «... وحصن البلاد وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد المغرب وإفريقية والأندلس، وبنى المارستان وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم(25).

مدارس إفريقيا الحفصية: غير أن معظم الآراء تكاد تتفق على أن وصول المدارس إلى المغرب الإسلامي كان بعد سقوط الدولة الموحدية، ولا شك أن ذلك كان بتأثير من المشرق ومصر بالذات لطبيعة دورها الحضاري وتأثيرها على منطقة المغرب، إضافة إلى العلاقة الطيبة التي كانت تربط البلاط الحفصي بالبلاد المملوكي في عهد أبي زكريا نفسه، حيث

أوكلت مهمات ووظائف متشابهة في أسسها، ومختلفة في تفاصيلها بين دويلاتها: ففي افريقيا الحفصية كان دور المدارس الحفاظ على المذهب الموحدي، مذهب ابن تومرت ونشره بعد أن تخلى عنه الموحدون أنفسهم في عهد الخليفة ادريس المأمون(26)، خصوصا وأن قيام الدولة الحفصية وشعارها، يرجع إلى هذا المذهب، ولكن المذهب المالكي أخذ يزاحم مذهب ابن تومرت في إفريقية نفسها ويحتل مساحات تدريجية داخل العاصمة الحفصية، دون مقاومة من الحكام رغبة في حماية شعبية الأسرة الحاكمة، واعتناقها لمذهب الأغلبية السكانية في افريقية(27)، ولا شك أن بعض هذه المدارس كانت تقوم بنشر العلوم الدينية المختلفة وفقا للمذهب المالكي. ومهما يكن فإن أولى المدارس المنشأة في إفريقيا، هي تلك التي أنشأها أبا زكريا الحفصي (624-647هـ / 1227-1249م)، فعندما استقل بافريقية بنى لها فيها قصبة عرفت باسم قصبة الموحدين وشيد فيها جامعا ومدرسة عرفت باسم المدرسة الشماعية، خصصها لتدريس مذهب التوحيد أو تعاليم إمام الموحدين المهدي ابن تومرت، وهو المذهب الرسمي للدولة(28)، وكان ذلك سنة 633هـ / 1235م، وبذلك تكون المدرسة الشماعية أول مدرسة أسست بافريقية الحفصية. وقد توالى بعد ذلك بناء المدارس في افريقية لتدريس العلوم الدينية والنفعية منذ النصف الثاني من القرن 7هـ / 13م، وتواصل تشييدها طيلة القرن 8 هـ / 14م حتى فاق عددها في نهايته 10 مدارس، ومنها المدرسة التوفيقية المعروفة باسم مدرسة الهواء، والمدرسة العتيقة والمدرسة المعرضية وغيرها كثير(29).

وازدادت المدارس نموا واضطرادا خلال القرن 9هـ / 15م، حتى تعدى عددها الستة مدارس، بناها سلاطين وقادة الدولة الحفصية، مثل مدرسة باب البحر (799هـ / 1390م)(30).

أما في الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، فإن وظيفة المدرسة فيها ارتبطت بنشر العلوم والمعارف الدينية اعتمادا على مذهب مالك فضلا عن مقاومة بقايا مذهب ابن تومرت وأفكار الموحدين، لدرجة أن أبا الحسن عند دخوله تونس أزال رسوم الموحدين بافريقية(31).

المدارس الزيانية: ولا شك أن وظيفة المدرسة في الدولة الزيانية لم تشذ عن وظيفة المدارس الحفصية والمرينية، فقد كانت تقوم بالتعليم ونشر العلوم والمعارف على اختلاف أنواعها وخاصة العلوم الدينية على المذهب المالكي وكان حكام بني عبد الواد يشجعون العلم والعلماء ويختارون لهذه المهمة فطاحل علماء عصرهم أمثال ابني الإمام وأبي عبد

اللّه الشريف التلمساني(32). وكانت أول مدرسة بنيت في تلمسان على يد الزيانيين، هي المدرسة التي بناها السلطان أبي حمو موسى الأول(707-718هـ / 1308-1318م) سنة 710هـ / 1310م، للعالمين الجليلين والفقيهين الشهيرين أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الإمام من أهل برشك(33)، وخلال حكم أبي تاشفين (718-737هـ / 1318-1336م)، بنيت المدرسة التاشفينية نسبة له، وكانت تسمى في حياته باسمه، ثم دعيت بالمدرسة الجديدة بعد وفاته ربما تمييزا لها عن مدرسة أولاد الإمام التي تسبقها(34)، وفي حدود 763-765هـ / 1361-1365م بنيت المدرسة اليعقوبية الزيانية على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ / 1358-1388م)، وذلك بعد أن ملك تلمسان، ويذكر ابن مريم إلى أنه: «... استدعى الشريف من فاس... فانطلق إلى تلمسان وتلقاه أبو حمو براحتيه وأصهر له في ابنته فزوجها إياه وبنى له مدرسة وأقام الشريف يدرس العلم بها إلى وفاته...»(35) وسميت المدرسة باسم والده يعقوب بعد أن دفن بها حيث اكتملت عمارتها، فدعيت المدرسة اليعقوبية(36). ولا شك أن هناك مدارس أخرى بتلمسان لم تذكرها النصوص التاريخية، إضافة إلى المدارس التي شيدها السلاطين المرينيين عندما استولوا على تلمسان.

وإذا كانت المدارس في الغرب الإسلامي، قد بدأ ظهورها في افريقية (تونس) حسبما تشير إليه الشواهد المادية الأثرية فإنها لا تلبث أن تواصل طريقها، لتظهر مرة أخرى بالمغرب الأقصى على العهد المريني.

مدارس المغرب الأقصى: بعد ثلاثين سنة من تأسيس أول مدرسة حفصية في افريقية (تونس)، وهي المدرسة الشماعية (633هـ / 1235م) انتقل نظام المدارس بطابعه ووظيفته إلى مدينة فاس المرينية واختصت مثلما هو عليه الحال في المشرق بتدريس العلوم الدينية، وبصفة خاصة الشريعة الإسلامية والفقه على المذهب المالكي، أحد مذاهب السنة الأربعة التي تولى المرينيون الدفاع عنه وحمايته(37).

وتعتبر الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، أكثر دويلات المغرب الإسلامي، حيوية ونشاطا في مجال التشييد العمراني بصفة عامة، وتشييد المدارس بصفة خاصة وأنفق سلاطينها وأمراؤها على عمارتها وتزيينها أموالا كثيرة، فجاءت على درجة كبيرة من الأبهة والفخامة(38).

وقد اتخذ المرينيون من حركة بناء المدارس مظهرا لسياستهم الدينية والعلمية، وبالتالي مظهرا للتأثير السياسي والاجتماعي في رعاياهم، وذلك من حيث الرضا بهم،

والقبول بمخططاتهم الهادفة إلى إعادة توحيد المغرب الإسلامي، تحت رايتهم سياسيا ودينيا وإداريا، بعد تقويض أركان الدولة الموحدية(39) والعودة بالمذهب المالكي، مذهب أغلبية المغاربة إلى مكانته المعهودة، والقضاء على تعاليم بن تومرت ومذهب التوحيد(40) الموحدي. وتحقيقا لذلك الهدف أكثر المرينيون من تشييد المدارس في المغرب الأقصى والتوسع في إقامتها في كل منطقة دخلت تحت حكمهم، وخاصة في المغرب الأوسط على عهدي أبي الحسن وأبي عنان(41).

وكانت أولى المدارس التي أنشئت بالمغرب الأقصى، مدرسة الصفارين، التي شيدها أبو يعقوب بن عبد الحق (657-685هـ / 1258-1286م) قرب سوق صناعة النحاس، وذلك لطلبة العلم، فأوقف على المدرسة الأوقاف، وأجرى على الطلبة المرتبات(42)، وكان ذلك حوالي سنة 670هـ 1271م.

ويتميز القرن 8هـ / 14م، والنصف الأول منه على وجه الخصوص بهمة سلاطين بني مرين في مجال العمران، واشتداد حركة التعمير فيه، ويمكن ملاحظة ثلاث فترات متميزة فيه، بنيت فيها أكبر المدارس وأفخمها، وتواكب تلك الفترات ثلاثة من أعظم سلاطين الأسرة المرينية، وهم على التوالي:

الفترة الأولى: عهد السلطان أبي سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب 710-732هـ / 1310-1331م.

الفترة الثانية: فترة حكم السلطان أبي الحسن علي بن عثمان (732-749هـ / 1331-1348م.

الفترة الثالثة والأخيرة: حكم فيها السلطان أبو عنان فارس المتوكل 749-759هـ / 1348-1357م).

وتتميز الفترة الثانية، بأنها أهم الفترات التي شيدت فيها المدارس، ذلك أنها تغطي عهد حكم أكثر سلاطين الدولة المرينية قوة وطموحا، وهو السلطان أبي الحسن صاحب المشاريع السياسية والعمرانية الطموحة الذي لم يدخر جهدا في تحقيقها كلها، ولكن الظروف السياسية التي واكبت محاولة تحقيق تلك المشاريع، عجلت في فشله ثم في القضاء على أحلامه، وأخيرا في وفاته هو نفسه، ولكن مع ذلك حقق أبو الحسن في مجال العمارة والعمران ما لم يحققه السلاطين المرينيين الذين سبقوه أو الذين أتوا بعده.

فابن مرزوق يذكر أن أبا الحسن أنشأ في كل بلدة من بلاد المغرب الأقصى والأوسط مدرسة، ويحصي تلك الأعمال في قائمة طويلة ذكر فيها: «... مدرسة تازا، ومدرسة كل

من مكناسة وسلا وطنجة وسبتة وأنفى وأزمور وأسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بظاهر تلمسان، وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع باختلاف البلدان...»(43).

(*) – هذا وسوف نتناول في العدد القادم من المجلة مدرسة العباد –سيدي أبي مدين بتلمسان– بالتحليل باعتبارها نموذجا متطورا للمدارس المغربية في العهد المريني والزياني.

الهوامش:

(1) – المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بكتاب الخطط، ج3، دار التحرير للطبع والنشر 1967-1968، ص 313-314. وعن الإشتقاقات والمعاني المختلفة للمدرسة ينظر أيضا: R. Hillenbrand, Encyclopedie de l'Islam, T.V. Paris, G.P. Maisonneuve, 1986, p. 1121 "Madrasa.

(2) – المقريزي، نفس المصدر، ج3، ص 314.

(3) – د. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر 1965، ص 152.

(4) – د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1976، ص 195-196.

(5) – ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 مجلدات، دار الكتاب اللبناني ومكتبة الحياة، بيروت–لبنان، 1983، مج 1، ص 770-771.

(6) – د. حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص 37.

(7) – غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مط. عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، دمشق–سوريا، 1969، ص 434-437.

(8) – انظر في ذلك د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، 1980، ص 369.

(9) – د. أ. مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، 1972، ص 181.

(10) – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت–لبنان، 1980، ج8، ص 109-110، د.أ.، مختار العبادي، نفس المرجع، ص 187.

(11) – ابن الأثير، مصدر سابق، ج 8، ص 185-187.

(12) – نفسه، ص 83-84.

(13) – ابن الأثير، مصدر سابق، ج 8، ص 162-163، محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية القاهرة، 1980، ص 234-233.

(14) – R. Hillenbrand, "Madrasa, In Encylopedie de l'Islamn, T.V., p. 1119-1120.

(15) – عن ذلك انظر د. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، ص 154-160.

(16) – R. Hillebrand, op. cit., p. 1123-1124.

(17) – محمد عبد الرحيم غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان–المغرب، 1953، ص 83-82.

(18) – د. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، ص 59-50.

(19) – المقريزي، الخطط، ج3، ص 315-316، د. كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص 32.

(20) – عن النظام المعماري لمدارس الشرق وتخطيطها، أنظر: R. Hillenbrand, "Madresa, In Encyclopedie de l'Islam, T.V., p. 11191-1120.

فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ج 1، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص 248-250، ابن جبير، الرحلة، دار الكتاب اللبناني، د.ت.، ص 164، د. حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970، ص 157-158، وعن مدارس مصر، أنظر: المقريزي، الخطط، ج3، ص 315-316، د. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1969، ص 49-118.

(21) – عن ذلك انظر: الفرد بل، الفرق الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، 1981، ص 226-246، ولد داده، مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع، دار الكتاب اللبناني، ودار الكتاب المصري، 1977، ص 105-118.

(22) – ألفريد بل، نفسه، ص 247-278، د. عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، 1983، ولد داده، المرجع السابق، ص 131-153.

(23) – ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق دة. ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 407.

(24) – ابن أبي زرع، الأنيس المطر بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر 1843، C.J. Tornberg, Ubsaliea ص 143.

(25) – نفس المصدر.

(26) – عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 594-595.

(27) – عبد العزيز الدولاتلي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر، 1981، ص 78.

(28) – عبد العزيز الدولاتلي، نفس المرجع، ص 79، 133، وانظر أيضا: G. Marçais, Remarque sur les medersas funéraires en berbérie, à propos de la tachfiniya de Tlemcen, extrait des mélanges, Gaudefroy démombynes, 1934, p. 262.

(29) – عن القصبة والمدارس ينظر نفسه، 78-79، 140، 149-154، 193-198.

(30) – عبد العزيز الدولاتلي، نفس المرجع، ص 140.

(31) – محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، 1979، ص 112.

(32) – د. عبد الحميد حاجيات، «الحياة الفكرية بالجزائري في عهد بني زيان،» في الجزائر في التاريخ، مؤلف جماعي، ج 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 437-436.

(33) – يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تقديم وتحقيق د. عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400-1980، ج1، ص 130. د. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني: حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 44، 46.

(34) – G. Marçais, L'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954, p. 285. J.J.L. Bargés, Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, Dupart, Paris, 1859, p. 310.

(35) – ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، عن النسخة التي نشرها الأستاذ محمد بن أبي شنب سنة 1918، ص 165-126.

(36) – د. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص 105، JJ.L Bargés, Tlemcen, pp. 335-336.

(37) – عن أولاد الإمام: أنظر يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج أ ، تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400-1980، ج1، ص 130، شار أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1978، ص 240.

(38) – G. Marçais, L'architecture, p. 285.

(39) – محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في عصر بني مرين، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987، ص 108.

(40) – السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تحقيق الأستاذان جعفر الناصري ومحمدالناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، المغرب، 1954-1955، ص 65، شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 240 .

(41) – ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 406-407.

(42) – السلاوي (أبو العباس بن خالد)، مصدر سابق، ص 65، شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 240.

(43) – ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 406.

* الاسم الأساسي لربض سيدي أبي مدين بظاهر تلمسان إلى الشرق منها وهو العباد وكان يتكون من جزئين: سفلي وعلوي، يسمى كل منهما: العباد السفلي والعباد العلوي، وظل اسم العباد متداولا في المصادر حتى الفترة الاستعمارية، حيث غلب اسم سيدي أبي مدين عن الاسم الأول بجزئيه: أنظر في ذلك: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 114، 130، 134، 184-185.
مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ش.و.ن.ت) الجزائر، 1979، ص 160.